كتاب نزوى

يصـدر عـن:

عن وزارة الإعلام

الإشراف العام
د. عبدالله بن ناصر الحراصي
وزير الإعلام

رئيس التحرير
سـيف الرحبي

مستشار التحرير
عائشة الدرمكي

مدير التحرير
هدى حمد

المحرر المسؤول
عبدالرحمن المسكري

التدقيق اللغوي
جمال عبدالناصر دراز

المحتوى الإلكتروني
هيثم الصبحي

الإخراج الفني
علي عبدالعزيز الجاويش

الإصدار الثاني والخمسون– أكتوبر 2021م
الموافق ربيع الأول 1443هـ

عنوان المراسلة:
ص.ب 855 الرمز البريدي: 117
الوادي الكبير، مسقط - سـلطنة عُمان
هاتف: 24601608 (00968)
فاكس: 24694254 (00968)
للتواصل بشأن التحرير والنشر:
Nizwa.magazine@omaninfo.om
للمتابعة الإدارية والمالية:
Finance.nizwa@omaninfo.om

الفهرس

الـرائـحـة 9

خيل شنون 14

قصيدة للكورنيش 21

إجازة حقيبة 27

قبل أن نسقط في البحر 31

اهتراء 35

غياب 41

الأغنام 45

مجموعة قصصية:

قبل أن نسقط في البحر

سلطان العزري

إهــداء:

القصص التي تكتبنا

تبقى فينا

وتلك التي نكتبها

قد نبقى فيها

لكن الأكيد أنها ترفرف لفضاءات بعيدة

قد تفهمها

فتنبت شجرة منسية.

تنويـــــه:

أي تشابه في الأسماء أو الشخصيات الموجودة في القصة هي من وحي خيال القاص ولا تمت للواقع بصلة.

الـرائـحـة

انتصبت قامات مبانٍ بيض، طويلة وعريضة، في وجهها عيون كثيرة، يدخل ويخرج من فمها البشر، بين طوابير تلك البنايات شقت طرق معبدة لسيارات جديدة، عربات حديثة لأناس يعتمرون الدشاديش البيض والعمائم المختلفة الألوان، نبتت على استحياء بين ضفتي تلك الطرق أشجار.

عندما يفتح الصباح فاه تمخر أكداس من العربات المكان، تفتح المدينة عينيها على شمس حارقة أنضجت البحر وتبحث عن ظلال ثابتة لتعريها، كانت الجبال والبنايات الطويلة والعريضة تبدو في مكانها الصحيح، العيون التي تراقب المكان، الشوارع الملتوية، الدشاديش البيض والعمائم المختلفة والأشجار الذابلة.

في البداية، في الليل، أخذت رائحة ما، تنتشر، في أماكن قليلة، تظهر أياما ثم تختفي، تستمر إلى نهاية الليل ثم تنسحب بهدوء حذر. بدت كرائحة عفنة تتخلل الهواء النقي، يصاحب انتشارها ضيق تنفس في الأماكن التي تظهر بها، يكمم الناس أفواههم لتجنبها، يحكم الرجال أطراف عمائمهم أمام أنوفهم. انتشرت معها عادة اللثام الليلي

ولتجنبها تضاعفت سماكة أخمرة النساء أمام وجوههن، تلتبس صورة المشهد حينما تظهر الرائحة، يتعمد آخرون الخروج متعطرين.

في الأيام الاولى، عندما اندست الرائحة في الظلمة، أخذت السيارات تغير مساراتها لتجنبها، كانت هي أيضا تغير أماكنها، تظهر أياما في مشارف المدينة، ثم تختفي، تظهر ثانية بعد أيام على ضفاف الشاطئ، ثم تختفي، تظهر ثالثة في منطقة فقيرة، بين البيوت المهملة، تستمر أياما ثم تختفي، تظهر رابعة في مناطق الأغنياء، بين تجمعات بناياتهم العملاقة والنظيفة، عند مرتفعات تضخ على البحر تلألؤها الليلي، تستمر لأيام، تطول أحيانا لتتجاوز الأسبوع، ثم تختفي، كانت رائحة غير مستقرة في مكان مؤكد.

حدث بعد فترة أن غيرت الرائحة العفنة التي تنتشر بالليل طبيعتها. أضافت بعض التوابل كأن تظهر أحيانا محملة بالرطوبة واللزوجة وكأنها اغتسلت بماء البحر، ثم نسيت المنشفة. تتسرب من بين مكيفات التبريد في المنازل والعربات وعمائم الرجال وأخمرة وقفازات النساء، ترفع عقيرتها في وجوه لم تعتد وضوحها، وجوه تتقنع خلف العطور الغالية وخيالات الدخان الكمبودي الأصيل، تعمل جاهدة بكل الوسائل لحماية نفسها من نشوز وصلافة الرائحة.

ظهرت ذات مرة، جافة وحارقة، لم ترحم الأشياء، كادت الأخيرة أن تفضح صمتها، أن تتحرك، أن تفتح فمها. كانت تقشر اللون الأبيض في بعض الأماكن، تكشف عن الألوان الأخرى، ألوان ركب فوقها اللون الأبيض، كثيرة هي الرؤوس التي لم تحتمل كم العمائم التي ترزح تحتها، كادت أن تحركها ولو لمرة واحدة، كانت رائحة جافة وحارقة، لم يستطع البحر أن يغطي جزءا ما منها، أن

يخفف من وطأتها.

ذات مساء، انتشرت في المدينة كلها، مدت لحافها على بقعة كبيرة في الخارطة، ظللتها، زادت حلكة ذلك المساء، زاد عدد الناس في المستشفيات، اختنقت العربات الفارهة، هرب عدد كبير من المدينة، خائفين من تورطهم وانفضاح التصاقها بهم، ستلتصق بهم، ركبوا السماء، غادروا إلى مدن بعيدة، تقلب العمال البسطاء في مجمعاتهم السكنية، لم تكن تعني الكثير لهم، يشمون كثيرا من الروائح، تفرزها جلودهم المجلودة كل نهار، تزورهم قريباتها في كل لحظات حياتهم، سكنهم وهم يتكدسون داخل الغرف، كانت حاضرة في صالات الطعام، في قراطيس عقود العمل، في وعود الساسة، في الضرائب، في صمتهم الجبان، في أحلامهم، تنتشر بينهم وتبدو مألوفة.

تكرر انتشارها في المدينة كلها كل مساء، لم تعد تكتفي بمكان ما. تلتصق بالأشياء، بالإنارة الواهنة، بالممرات، تنسل بين الدشاديش والجلد، تزكم الأنوف الملثمة، رائحة نفاذة بقسوتها، تكرر ظهورها أيضا، دقت أوتادها بالمكان، تربعت على طبيعة الهواء المنتشر، كانت الأفواه تلوكها وتتعود حضورها الليلي المعتاد.

متى ينتهي الليل؟ صاحبها هذا السؤال، حاول كثيرون ملء بيوتهم وحياتهم وأماكن عملهم بالإضاءة، لا تظهر بالنهار عندما تتثاءب الشمس طاردة فلول الحلكة. صارت العتمة ترتبط بها في الوعي، ثم تطورت حتى سيطرت كفكرة على اللاوعي، المتخيل والذاكرة. أصبحت المدينة تدين لها بأسمائها المتعددة لتلك الرائحة، مدينة الرائحة العفنة، مدينة الظلمة الفاسدة، مدينة الروائح الكريهة،

وعندما تنقشع خيوط الفجر الأولى كانت تخفف من وطأتها على المدينة.

ذات نهار، بعد زمن طويل، تغطت بلحاف أسود، اخترقت صفوف النهار، حامت في البداية عند الأماكن البعيدة، ثم دخلت الشوارع المفتوحة، وجدت ذاتها وسط الزحام، خافت الأشياء الثابتة من ذلك التحول، زادت العيون التي تراقبها وهي تنتشر، أبصار ثابتة، معلقة بعضها أمام مصابيح مطفأة في العربات الفارهة، في شوارع النهار النظيفة، كانت مدينة تجيد كنس مخلفات الظلام والعتمة.

دهشت الرائحة من المشهد، نهارات تبحث عن مخرج، تبحث عن صور جميلة، عن أفكار جديدة، لتطريز ثيابها، لتظهر في أفضل حلة، لتغطي قصتها كل ليلة، تعددت الوسائل، غطيت قصصها، جُلبت من أماكن بعيدة أفضل الثياب البراقة، أسهلها أيضا، وزعت على الأشياء الثابتة والمتحركة، أبرزت الحياة النهارية كنهاية لها. ببساطة، أحست بتعمد إهمالها، كأن لم تكن، كان نوعا من النسيان المخطط، الهيئات أشرقت جوانبها، اتكأت بانتفاخ ربط العتمة بالرائحة الفاسدة، ارتدت الأخيرة ثيابا جديدة، أخفت ببراعة تأقلمها المدروس.

وفي نهارات لاحقة، تعمدت الرائحة العفنة الخروج والتجوال، مراقبة المشهد، الانتشار سريعا كلما وجدت رفًا ما، سقفًا يغطي الضوء المنتشر، يحجب النهار، مكانا تسوده العتمة، منزويًا وغير مرئي، تتخفف ساعتها من أكوام الثياب التي تغطيها، تنتشر في تلك الأماكن، كالعادة.

غطت الأشياء والبشر والحيوانات أنوفها وحاولت التخلص منها، بداية ظهورها النهاري، هُرِّبت أسئلة عن انتشارها، بحثت هي عن أجوبة ما، حاولت التعلق بالأجوبة الجاهزة، المعروفة، الأخيرة واهنة. كان التشرد والمرض والتعب والفقر والظلم قد أكل من تلك العلب الجاهزة والمهيأة لكل شيء، لم تستطع الأسئلة أن تتحمل عبء الإجابة عن انتشارها بالنهار، لذلك سقطت في المواجهات الأولى، تحت أسئلة عيون الأشياء المتعددة كالقامات البيضاء الطويلة والعريضة، الدشاديش البيض والعمائم المختلفة الألوان وأشجار الظل..

تأففت وجوه ما من تلك الرائحة الفاسدة. علا صوتها قليلا، مرت الأيام سريعة، كانت هي تتمدد بالليل، لا يستطيع الأخير بلعها، تفيض بشوارع النهار، تنتشر بين الظلال، تحت الهياكل، صبغت الليل، استطاعت أن تتجاوزه للنهار، أن تجد ثقوبا كبيرة وأخرى صغيرة تتسلل منها، زادت من حدتها، تعامدت سياط الشمس القاسية على الوجوه، صبغتها بلونها، تلمستها، أحستها الوجوه عادية ومألوفة، رمت الأغطية عن وجوهها وقد أدمنت تلك الرائحة العفنة المنتشرة التي لا يتحدث أحد عنها، أصبحت تتمتع بنهارات متلألئة على شاطئ البحر، تُقدمُ مع أطباق الكافيار كوجبة راقية لوجوه اعتادتها، التصقت بثيابها، كانت وجوه مزهوة لامتلاكها وقدرتها على تفريخها ومحاربتها حين تحتاج لذلك.

خيل شنون

كان مشهدا غريبا، إذ لم يكن مستحيلا أن يدخل أحدهم بخيله إلى السوق، ليشتري البرسيم، رغم ندرة الخيول في ذلك المكان، ورغم أن الخيول غير متاحة للجميع، لغلائها، ولحاجتها للعناية، ولصرف الكثير من الأموال عليها، حتى عندما تموت تحتاج إلى أن تدفن، أن يكون هناك عمال لحفر قبرها، أن تحمل في سيارة محترمة، ثم تدفن باحترام. الخيل تعني الكثير، لذلك عندما تبختر شنون بائع السكاكين المشحوذة متباهيا بها أمام الجميع في السوق، بدا المشهد مفارقا، غريبا ومزعجا، مشهد لا يحتمل -كما قال أحدهم- شنون الفقير، شنون ذو الأصول الأفريقية، العجوز يمتلك خيلا ذات شلاشل وحلي فضية، تتبختر في السوق. ربط الأخير خطامها في زاوية بجانب مواقف السيارات، بدأ البعض بالانسحاب ومواصلة أعمالهم، ظل آخرون يراقبون المشهد. كانت ضحكات شنون مع بائعي البرسيم عالية، فرحا بامتلاكه الخيل. لم يبح أبدا بالقصة التي حدثت له، بسر تملكه لخيل دهماء. ظل ثلاثين عاما أو أكثر يبيع السكاكين التي يشحذها جيدا، وفجأة، دون بوادر أو تمهيد، يمتلك خيلا تقلدت شلاشل وحليًا فضية في نحرها وعلى جانبيها.

ذلك اليوم، أرسلت الشمس الحياة صافية إلى السوق، عند الساعة التاسعة، شخصت أبصار الجميع، ليراقبوا المشهد. التجار أمام محلاتهم التجارية، أصحاب الماشية، الباعة المتجولون اصطفوا لمتابعة المنظر، باعة البرسيم، باعة السمك، اللحامون، المنادون في السوق. كان مشهدا استثنائيا. توقف العمال الآسيويون عن عملهم. إنه شنون، الجميع يعرفه، بعضهم يذكره منذ أن عقل، شنون الرجل الهرم، العجوز الخرف الذي يبيع السكاكين المشحوذة جيدا، شنون الذي كان جده مخصيًا وهو يعمل في بيت الشيخ، شنون ذو السحنة الأفريقية، شنون الذي يجلس يوميا في زاوية بالسوق، زاوية شنون، لا يزال حصيرته المطوية وتلك الصخرة الضخمة تمتلكان ذلك المكان، إنه مكان شنون، يأتي الأخير مبكرا ويغادر متأخرا، كل يوم منذ ثلاثين عاما أو أكثر.

لكن ذلك اليوم كان مختلفا. خرجت النساء اللواتي يبعن الحناء والورس والزعفران البلدي من محالهن لمشاهدة شنون، كانت الساعة التاسعة صباحا، ارتدى شنون دشداشة بيضاء جديدة، تطرزها خطوط سوداء، اعتمر عمامة بيضاء، يتأرجح أمامه الخنجر المربوط بوسطه النحيل، تهز يده اليمنى خيزران على طرفيها فضة، في يده اليسرى خطام خيل تتبعه، خيل دهماء، تمشي بهدوء، خطام جلدي ينتهي بشلاشل في فم الخيل، يسمع وقع حوافرها في إسفلت السوق، طق.. طق.. طق. هزَّ شنون عصاه؛ وهو يمشي أمام محلات الجملة الكبيرة، أمام التجار الأغنياء، أمام العمال البسطاء، أمام عيون الكبار والصغار، كان مزهوًا بتلك الخيل أمام بائعي البرسيم في السوق.

لم يكن مهمًا أن الخيل - حيث ربط خطامها بجانب المواقف

العامة - قد بعرت كثيرا، أو أنها تركت بعرها على وجه سيارة الشرطة التي ركنت خلفها، لم يكن مهما كذلك أن شنون اشترى حزمتين كبيرتين من البرسيم، حملها عامل آسيوي له، مشى خلف الخيل التي كان شنون يقودها من خطامها وهو يغادر السوق. ما كان مهما هو أن شنون الحداد بات يمتلك خيلا يفاخر بها، خيلا حقيقة، خيلا أرادها أن تغيظ الأغنياء والشيوخ، شعر ساعتها بأنه تساوى معهم، شنون الحداد أصبح معهم، إنه يمتلك خيلا حية رغم هزالها.

في ذلك اليوم منذ الفجر، قدم شنون للخيل برسيما وماء صافيا قبل أن يتباهى بها في السوق، نظفها بالصابون والماء، أسرجها بسرج عماني أصيل، اشتراه منذ سنوات، حافظ عليه داخل مندوس كبير، مغطى ونظيف، كان سرجًا جميلا، تتدلى منه ما يشبه الفصوص الكبيرة، حمراء وخضراء وسوداء وبيضاء. زين نحر الخيل بسلاسل الفضة، إنها عروس، يجب أن تتزين. خطمها وتعمد عدم امتطائها.

نجح السرج والزينة الفضية في إخفاء بعض العيوب، كانت حقيقة، خيلا هزيلة، سقطت بعض ضروسها، كانت خيلا عجوزا متعبة، من يمتلك خيلا سيعرف ذلك عندما يشاهدها، ولكن من يمتلك خيلا هم القلة، العامة لا يمتلكون خيولا، إلا فيما ندر، لم يسبق لكثير من الناس أن لمسوا خيلا في حياتهم أو اقتربوا منها كثيرا.

في البداية أثار ذلك اليوم الكثير، حقق شنون هدفه في بادئ الأمر، المفاخرة، انتشر الخبر في السوق، كان الهشيم كبيرا والنار انتشرت بسرعة، الجميع عرف أن شنون الحداد يمتلك خيلا، خيلا يتبختر بها في السوق، ظهرت بعض الدعابات في أوقات لاحقة:

«سوف يشارك بها في مسابقة جمال الخيل»، «سوف ينافس بها في السباقات الدولية للتحمل والقدرة»، «يقال إنها من سلالة عربية أصيلة»، «لم يرض أن يبيعها بخمسين ألفا عُرضت عليه»، انتشرت أيضا بعض الأمثال القديمة غير السائدة « صدق يوم قالوا: كما خيل الزط، كلها تبرقش».

حافظ شنون على تماسكه، ظهر بوجه جديد، يجيد امتطاء الخيل المتبخترة، يدخل بها السوق مرتين في اليوم الواحد، ضحى وبعد صلاة العصر، بات المشهد مألوفا نوعا ما، كان كل يوم وهو يساوم على ثمن البرسيم يقرأ مطلع سورة العاديات «والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا» بصوت واضح، كما أن قصائد قديمة اصبحت تتردد على لسانه، أجاد شنون ترديدها على طول درب السوق «وخيولهم مثل الرياح.. تسقي الخصم وتخوض دم.. شبان يا كبار الشيم.. أهل الخيول الصافنات». بعد مرور ثلاثة أسابيع حفظ المارة وأصحاب المحلات والعمال وحتى الشرطة شنون وخيله، لم يعد شنون يبيع السكاكين المسنونة أو المشارط، لقد نسي الفراش المطوي والزاوية التي يجلس بها، أو تناساها، لم تعد ثيابه بالية أو وسخة، لم يعد يجالس الباعة البسطاء أمثاله، كان يفكر بالخيل التي يمتلكها، بالسمعة التي أصبحت له، برأي الناس فيه، سوف يغير قدره، سيحترمه الناس، لن يموت وهو بائع سكاكين مشحوذة، سيموت كفارس يمتطي خيلا دهماء.

باءت محاولات شنون كتم سِرِّ امتلاكه للخيل طوال الوقت بالإخفاق. بدأ الخبر ينتشر، في الحارة التي يسكن فيها، في السوق، في شوارع تلك المدينة، لذا عرف الجميع، الجميع يستمتعون

بالأخبار، بالإشاعات. في البداية أثاروا بعض الأسئلة، ثم أنهم كانوا يطلقون الدعابات القاسية على شنون الذي تنكر لأصله، الحداد الحالم بأن يصبح فارسا لزمانه على خيل سقطت ثلة من أسنانها الأمامية.

كان شنون قد قدم طلبا لجهة حكومية توزع خيولها بعد انتهاء خدمتها على الناس الذين يقدمون طلبات رغبتهم باقتنائها، شريطة إطعامها جيدا والعناية بها، وذلك بدلا من قتلها بالرصاص. كان طلب شنون قديما، قبل سنوات بعيدة، لذلك عندما أتاه الخبر كان قد أعد العدة جيدا. لقد جهز السرج والحلي والزينة والجلود والأخطمة للخيل القادمة، كما تعلم كيف يعتني بها، قسّم منزله الصغير ذا الغرفتين والبراح الصغير، زرع أشجار ظل، أضاف عند الزاوية في منزله غرفة من سعف النخيل، أعد البراح بأكداس رمل كبيرة دحاها لتستوي وترتاح فيها الخيل، كان سعيدا جدا، لم يهتم بتعليقات الآخرين على هزال خيله وكبر سنها، أو على حركتها البطيئة التي ازدادت مع مرور الأيام وضوحا، أو بسبب الصيف الذي عاد لموسمه سريعا، الصيف الذي أنهكها أكثر، كانت خيلا عجوزا تحتاج للراحة بعد سنواتها الطويلة في الخدمة، السنوات التي جعلتها أشبه بخيل.

في البداية، مع صعوبة إخفاء تلك المشكلات التي تواجهه، أصبح يخرجها يوما من المنزل وآخر يبقيها فيه، ثم بات واضحا أنها لم تعد تُرى بالمساء، شح نظرها، الخيل العجوز المسكينة، ظل شنون ثابتا، لم تؤثر فيه كل تلك الأشياء، تغافل عنها، إنه لا يريد أن يفقد امتيازات امتلاك خيل في نظر الآخرين.

لم تُجدِ تهكمات الناس، والنكت، والأمثال التي قيلت فيه، وقصص شنون وخيله الدهماء، وأخذ الأطفال يترصدون للخيل

عندما تخرج من المنزل. كان شنون يسير أمامها، شوهد وهو يمتطيها أحيانا قليلة. رآه الأطفال الصغار في البداية ثم الأكبر منهم، صاحوا وصرخوا خلفه، رموهما بالحصى. حمل شنون بندقيته وحزام الرصاص بعد حادثة نخس الخيل بعصا طويلة في إحدى المرات الأخيرة، حلف بالأيمان المغلظة بأنه سيرد بالرصاص، توقف الأطفال عن ملاحقتهما، فقد كان جادا، سيقتل أحدهم. انتاب الناس القلق والخوف من حالة التوحد بالخيل لدى شنون، ظل بعض الأطفال يصرخون من بعيد عندما يشاهدون شنون والخيل الدهماء العجوز.

ذات مساء، طرق أحدهم باب بيت شنون، كان صاحب سيارة شحن كبيرة، تحمل أكياس سردين مجفف. أنزل مائة وعشرين كيسا كبيرا في براح بيت شنون، إنها مرسلة من عند خاله ناصر، الذي يعيش في مدينة تبعد عنه أكثر من مائة كيلومتر. كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة ليلا، استلمها شنون، بات تلك الليلة وهو يفكر في أكياس السردين الجافة المرسلة إليه، لماذا؟ كانت رائحة البيت تمتلئ برائحة السردين المجفف، انتشرت الرائحة لتعم البيوت القريبة كلها، لم يستطع شنون النوم من طغيان الرائحة في المكان، حتى الخيل كانت تدور حول مربطها، لم تنم.

بعد صلاة الفجر، وبعد فتح الدكاكين قبل السابعة صباحا، اشترى شنون بطاقة هاتف عمومي، اتصل بخاله ناصر، خاله الذي يكبره بسنوات مصاب بالصمم. أشرقت الشمس، طلبة المدارس تجمعوا بجانب المطعم انتظارا لحافلات مدارسهم، دبت الحياة في الساحة. شنون يصرخ في الهاتف العمومي القريب من المطعم الذي

يتجمع الطلبة بجانبه في انتظار حافلة المدرسة، كانوا يعرفون شنون وخيله المشهورة، أطلقت مجموعة منهم صهيلا جماعيا عندما سكت شنون منتظرا صوت خاله ناصر في الجانب الآخر..

– لقد وصلتني بالليل مائة وعشرين جونية من العومة، ليش راسلهن؟؟

–....

– والله العظيم أنا ما اتصلت بك وطلبت العومة، ويش أريد بها؟

-...

– أنا عندي خيل ما عندي بقرة، العومة حال البقر... كم؟

– الجونية بريال ونصف.. دفعت مائة وثمانين ريال.. أنا ما عندي. أنا ما أريد عومة.

-...

– أولاد .... اتصلوا بك وأنت صدقت أني أنا وأريد عومة حال البقرة اللي عندي.

.. كان حوارا مكشوفا، قصة مئة وخمسين كيسا من السردين لشنون لإطعام بقرته، تعالت ضحكات مجموعة من الطلبة المراهقين، أغلق شنون سماعة الهاتف العام، لم يلتفت لصهيل المراهقين خلفه، اتجه لمنزله، ردد أحدهم تهكما خلف شنون: «بقرة شنون تأكل عومة».

بعد دقائق، دوت طلقة رصاص من بيت شنون.

قصيدة للكورنيش

يشهق الرجل ويعب ملء رئتيه غبارا ضاغطا، متفجرات ومخارط وثعابين وشمس قاسية وجنون طوفان وقصور وطين وجثث وأصدقاء ومساعدات وبراويز معلقة أمامه وقمل وضحايا وحيتان وفقراء ومهمشون وعشش صفيح بالية، يزفر متخيلا نوارس تحلق حول الشاطئ المتلألئ محاولا خلق صورة إيجابية كما حدد له ذلك الأخصائي النفسي، « عليك عدم نسيان الجانب الممتلئ من الكأس».

يتخيل الجبال الشاهقة وقد تحولت لكعكات ضخمة تنتظر أفواهًا تقضمها، خلف تلك الأفواه وجوه ممتلئة تعيش في مجمعات خاصة، تبعدها عن الصيف والفقراء واللصوص والزحام والجثث والدود والذباب والرائحة العفنة، من النوع الذي يجيد تذوق الكأس الممتلئة ورائحة العطر الكمبودي ويتودد له صحفيو العمود اليومي، دون أن يشعروا بالشفقة على عيون الأطفال الجائعة وهي تلتصق بملابس أهلها قبل دخولها لسوق الظلام .

منذ زمن بعيد أناخ تعبه على المصطبة التي تواجه البحر، دس

يده بخبث متعمد داخل شوال ذلك الليل الهرم فتلبسته قصص العتمة، يتمدد كراهب بوذي، يبحث عن السكينة والهدوء، هناك ما يشبه المعنى في الأشياء، يتماهى مع المحيط ووشوشة الأمواج الهادئة، يجد نفسه غائصا في التفاصيل التي تتناثر على النتوءات الصخرية، ينتظر بتخشبه الصباح.

يولد نهار جديد مع نهاية عتمة الليل، سحبت الكلاب أذيالها وهي تتسلق منحدرات وسفوح جبال وعرة، تختبئ في كهوف صغيرة أو تحت أشجار بعيدة، اكتفى بعض السكارى بالتدحرج لأزقة وخرائب لا تفارقها العتمة، متقرفصين ومختبئين وهم منتشون بمشروبات الليل المحرمة وقد اختلطت بدمائهم.

خفتت إضاءة الشوارع المتلألئة على صفحة البحر، علت المنابر بصوت أذان الفجر، تتلمس أقدام طريقها للمساجد الملتصقة بالبيوت والأزقة؛ ينتشل من بقايا ليلة كالحة، يبحث عن روح جماعية يضمُّ فيها بعض أحلامه، يفرغ قذى عينيه على ساعات قادمة، يتنفس الفجر قليلا، محملا برائحة بحر هادئ تغطي المكان بلحافها، قبل نهوض سياط وحديد واكتظاظ متَعوَّد..

بدت الأمواج الخفيفة تداعب المصاطب الحجرية على الكورنيش، ترفرف أجنحة نوارس حول المكان، تبحث عن التماعة سمكة غرها ضوء نهار جديد فارتفعت إلى صفحة البحر اللازوردي، دبت كائنات أخرى مع خيوط الشمس، عمال النظافة يجمعون بقايا الأحلام المنثورة على سيف الكورنيش، أناس عابرون لعملهم، صيادون عائدون بعد مسامرة بحر تشدو في جيوبه الأصداف والأسماك والحكايات، وجوه أخرى تحاول أن تقتنص نسمة هواء شاردة، ترقد فنادق على الضفة،

تنسل مجموعة سياح من أفواه فنادق الضفة لمراقبة النهار القادم.

يقعد على مدخل السوق القديم فوق دكة لشرب الشاي الأحمر يقدمها عامل هندي، تتحرك ملعقة صغيرة، فتدور معها الممرات والأزقة والمداخل والمخارج، للحظة تنعش المكان نسمة هواء رطبة ومعبأة ببقايا ليل فائت اندست كلابه وأقدام لصوصه وشوارعه المضاءة، تبدأ المحلات التجارية المتراصة بفتح أفواهها، يدعك صبي بقايا الليل من أرنبة أنفه، يتضوع المكان برائحة اللبان الظفاري، هنود وأفغان وباكستانيون وعرب وإيرانيون ينظفون أمام محالهم، هنالك من يدلق صندوق ماء طاردا غبار اللحظة والتوجس والخوف، تدوس أقدام المتجولين والسياح والمشترين المكان، أقدام تنتعل أحذية غالية وأخرى أحذية عمل وثالثة ما يشبه أخفافًا شققتها الحياة ورابعة حافية شققتها هموم الأرض.

يبحلق بعينيه في الوجوه العابرة أمامه، يشد وجهه المتخشب وعينيه المتصلبتين للحظات، لا يتوهم غياب الابتسامة فيها، صامتة، حادة، تترقب بوجل، صيحات أطفال تحاول اللحاق بأهلها، ترسم بهجة ما وهي تتشبث بملابسهم، كانت وجوه يميزها التعب والخوف من المغامرة بالابتسام للحياة، كلما غاص في قاع السوق كانت الظلمة تنشر قليلا من ردائها غير آبهة بشمس تغلبت على نعاسها ونهضت من خلف جبال سوداء تحتضن المكان، صلداء، فاحمة كغراب، يختلط لونها الأسود مع زرقة السماء، تقف في مواجهة بحر يتعرق كل دقيقة.

كان إحساسه بعجزه ينمو، يسري في مسامات الأشياء أمامه، يتشابك ويظهر بسرابه في وجوه الناس والجدران والممرات والأزقة

والسماء المغلقة داخل سوق الظلام، يهرب للبحر حاملا فوق كتفيه حقيبة مليئة بأسئلة كثيرة تثقل كاهله، ترتسم في وجهه البلاهة بينما تخرج من فمه أسئلة آنية وغبية، تستمتع بالتفاصيل وما يبدو كأشياء واضحة، يراقب بدايات العتمة المعتادة تعبر محملة بالقصص المنسية، يمر الليل أمامه مقوس الظهر، يتوكأ على أحلام مطفأة لم تتوهج يوما.

يحاول خلق متعته، رؤية الأشياء البسيطة، كآنيتها التي لا تحتمل التأويلات البعيدة، يحاول أن يبحث التفاصيل الواضحة، يشعر برغبة ازاحة الضغط المتربع داخله، أن يخفف من حمل ذاكرته، تلك الحقيبة المليئة بالفوضى ذات آلاف النوافذ التي تدلت منها خيوط متاهات وتشابكت، يريد أن يمسك بخيط ما سبيلا منجيا من متاهته، يحرك يديه في الهواء وكأنه يتشبث بشيء ما، ينتبه بعض المارة لهذا النائم على المصطبة أمام الكورنيش وهو يلوح بيديه للبحر منتشيا كقائد فرقة موسيقية في ذروة عزف لمقطوعة ملتهبة، يتذكر لحظتها التفاصيل البسيطة والواضحة، يحاول أخرى أن يعيد يديه لجانبيه، أن يكون مسترخيا أكثر، كراهب بوذي، أمام البحر ونتوءاته الصغيرة، يشعر بالنسائم الباردة التي خرجت من فم البحر وهي تنتشله، ترفعه للأعلى، للحظة يرى المشهد واضحا وصافيا، بعيدا عن الانهيارات والعتمة، يمتزج بالضوء..

يعود بعد برهة للانغماس في التفاصيل الصغيرة، يراقب قلعة قديمة تتربع على قمة جبل يناطح البحر قبل أن تخرطه المسننات وتهشم أطرفه لطريق معبد، يعدل من تمدده ويجلس منتصبا، يرى أجسادا أخرى تتمدد فوق المصاطب الرخامية على لسان الكورنيش،

تمخر سفينة عملاقة البحر، تطلق بوقها مؤذنة بالرحيل، يتضاءل أمام صافرتها مرفأ الميناء المقابل، تعبر كجبل يتحرك، صارمة وواثقة، تدوي صرختها لثوان ثم تذوب بين أصوات المحركات، تفقس أبواق سيارات في وجوه عمال النظافة وهم يقطعون الشارع، يلملمون أقدامهم بسرعة والعبوات الغازية والقذارة وبقايا مناديل رميت للريح، أحس بتغير كثافة الأشياء في عقله، حاول البحث مجددا عن تفاصيل صغيرة وبسيطة.

تحلق أمامه نوارس منتعشة بتيارات الهواء الرطبة وأشعة الشمس الذهبية، يتحين مرور كتل الحديد المستعجلة على الكورنيش، يقفز أمامها وهو يجرب شعر رأسه الكث والقذر، طاردا في وجهها قبضات من قمل عشش طويلا بين مسام شعره المنفوش، نافثا تميمته للحياة المنبثقة.

تموَج الشارع كثعبان جائع يبحث عن وجبة إفطار بعينين غطاهما قذى الليالي الفائتة، يتحين فرصة لينقض على فريسة ما أرهقها الليل وهي تعود مثقلة بكثافة الأشياء، تريد أن تلتحف النوم، فوقه توجد سماء تحتفل بزرقتها ولا تهتم بكثافة تلك الأشياء، يلتف الشارع كثعبان مليء ظهره برقع شطرنج طويلة، تتحرك الأخيرة باحثة عن ضحيتها من البيادق، يتحرك ويلتف. تتحرك قطعه المموهة، ترتفع بنايات بيضاء على جانبيه، تنعكس سياط شمس قاسية على البياض الممتد في الأفق وخلفها تنهض جبال سوداء.

أحس بالجبال السوداء تنسكب وتلاحقه، يخنقه رعب ما، يرتجف من البرد، يعتريه ضيق في صدره وصعوبة في التنفس، يتسلق المصطبة ذاتها، ينكمش ويتقوس داخلها، يغلبه الإحساس بالبرد،

يبحث عن الأشياء البسيطة ليتنفس، تهرب منه، تلاحقه الكثافة وتضغط على صدره بحجارة جارحة..

يلفه دوار وهو ينهض عن المصطبة، الشمس تقترب من كبد سماء تتلون ببلاهة لون أزرق فاضح، خلفه يتوسد عمران يرسم قافلة للحديد والاسمنت والبياض، الأخير سيد المكان، شوارع وممرات وأنفاق وجسور، ثعبان ضخم يحرك قطع الحديد على ظهره، يخفي حراشفه المسننة السامة، ينتظر وثبة قادمة، فرصة ليلتهم ما يسد نهمه..

بحث في جيبه عن سجائره القديمة، لا يعرف لماذا يريد أن يدخن الآن، سيتحين مرور عابرٍ ويطلبه سيجارة، ثم إنه.. عاد ليهذي « اللعنة على هذا البق والقمل، لا تنفع معه كثرة الحك أو الدخول في البحر بجانب الكورنيش عاريا»، أشاح بوجهه لتعبر تلك الفكرة، لتطير بعيدا كنورس غريب، حاول التعلق بها لكنها تملصت وامتطت سحابة بعيدة، رفع فردة نعله المتبقية، وسادته على المصطبة الرخامية ولوح بها على تلك الفكرة الفاجرة، فكرة الدخان والنوارس والعري والإسمنت والمدينة البيضاء، شتمها بينما كانت سيارات خلفه تنهق بأبواق غريبة، مزامير وشمس قاسية وبرد يقضمه، ثم إنه.. عاد ليهذي «اللعنة على هذا القمل في رأسي، سأنفضه في وجوه العابرين، على ظهر الثعبان الشطرنجي، صناديق الحديد والقرطاس والبياض والإذاعات التي ...».

إجازة حقيبة

اجتهد سالم الطرف للخروج من عباءة العمل كل عام، يطير في إجازته إلى عالم آخر مختلف، كانت اهتماماته بسيطة، يحلم بأسراب من الغيوم وهي تطفئ جفاف عينيه وحلقه ومخيلته، يحلم بفتيات لا يتوجس أن يقرأهن عطشه فيبادلنه سقاية عذبة، يحلم بخيارات ملابسه أو قصة شعره الغريبة أو زوبعته محتجا ومناهضا لأفكار طرأت على عقله فلا يخاف ويصرخ بها فتجيبه الوديان والعيون والموسيقى، فيرقص للحياة ويبتسم قبل أن يفتح عينيه كل صباح.

كان ينظم رحلته جيدا، يبدأ هجرته السنوية بأن يتوجه للمطار مباشرة بعد نهاية يوم عمله الأخير ويطير، يكون قد جهز جواز سفره والتأشيرة وعملة تلك البلد وملابسه، يوقف سيارته في مكان آمن اعتاده بعيدا عن الشارع، ثم يقفز لسيارة أجرة توصله بوابة المطار، تنام تذكرة سفره في جيبه لأيام قبل سفره، وعندما تشرق شمس اليوم الأول لإجازته يكون في عالم حلمه لمدة عام سابق، عالم مختلف ينشر فيه حياته كلحاف على الملأ دون أن يخجل أو يخاف.

غير أن خللا واجهه في إعداده للتمتع بإجازته السنوية الأخيرة،

لقد تعطلت سيارته قبل بداية إجازته بيوم واحد، كان قد صرف نقوده لتغيرها بعملة ذلك المكان الحلم، جهز أوراقه، حشر قميصا وبنطالا واحدا وكمية من ملابسه الداخلية التحتية، كذلك صندوق الواقي الذكري الجيد الصنع، كان قد تعرف في سفره الأخير على مكان رخيص يبيع نوعية ممتازة من الملابس، سوف يشتري ما يحتاجه من هناك.

دلف سالم الطرف لمبنى عمله الضخم مبكرا، دس حقيبة سفره أسفل طاولة الاستقبال الضخمة، ألبسها جريدة وبعض الصحف كي لا ينتبه إليها أحد ما، لا يستطيع أن يدخلها لمكان عمله، سوف يستهزئ به الموظفون الآخرون، في غضون دقائق سيعلم المبنى بسفره، لأنهم فارغون فإن حكاية كهذه ستكون كفيلة لإعطائهم سببا لحديث ما، سيفرغون إحباطاتهم وبؤسهم على حقيبة سفره، لذا قرر أن يحشرها أسفل طاولة الاستقبال الضخمة ريثما تركض ساعات العمل المملة دون السماح للأفواه الجائعة أن تلوكه طيلة النهار أو عندما يرجع من سفره، وحتى بعد سنوات طويلة، احتفظ في ظرف متوسط الحجم بأوراقه الثبوتية والمبالغ المالية وتذكرة السفر، ترك بالحقيبة فقط بنطالا وقميصا وملابس داخلية وواقيات ذكرية.

فات على سالم الطرف التنسيق مع رجل الاستقبال، لم يخبره بأمرها، انهمك في عمله، وبعد موت ساعات قليلة أخرى من نهار العمل، سوف يطير، صاح فجأة جهاز الإنذار في المبنى، لم يكن تدريبا أو خللا فنيا، كان الجميع يركض للخروج من بوابات الطوارئ على جانبي المبنى، أغلق المصعد الكهربائي، منع الموظفين من نزول السلم الرئيسي، لا بد من وجود أمر مزعج، تدافع الموظفون

المذعورون على سلالم الطوارئ، هناك من داسته الأقدام، هناك من كان يصرخ مستغيثا، علا الغبار في ممر الخروج من المبنى، تجمهر الناس في الخارج لمتابعة الأمر، كانت قوات من الأمن والشرطة والجيش تبعد الناس عن المبنى، طارت سيارات أرباب العمل مولية الأدبار، كوباء فرغت المباني المجاورة للمبنى من موظفيها، ازدحمت الشوارع القريبة، انتشر خبر تفخيخ المبنى الذي يعمل فيه سالم الطرف لوسائل الإعلام، ربحت الأخيرة بضع ملايين من مستهلكيها، بثت قنوات عالمية خبرا مباشرا ولقاء مع مسؤول أمني كبير بالدولة، كان يهدد بأن المؤسسة الأمنية جاهزة ومدربة وستضرب بيد من حديد كل من تسول له نفسه ويتجرأ على زعزعة استقرار البلد الآمن.

ككابوس طلت هجمات 11 سبتمبر على أمريكا، هجمات القطارات، المباني، الحروب ضد الإرهاب في رأس سالم بن الطرف، كان يسمع بكل تلك الفظائع بعيدا وربما في الأخبار والتلفاز، أصبح الهواء المحيط به مكهربا، غير أنه كان مدركا لذلك، تعامل منذ ذلك الوقت بذكاء مع الموضوع، لم يبدِ رأيا، اندس خلف قناعات السكوت، شق طريقا وسط الألغام وخرج سالما.

تابع بالتلفاز من مقهى يبعد ثلاثة شوارع من مبنى عمله، لماذا وكيف ومن؟ حامت أسئلة كثيرة، بعد ساعة بثت قناة عالمية بأن الحقيبة المفخخة كانت عبارة عن حقيبة تحتوي على ملابس داخلية وواقيات ذكرية، صرح مسؤول آخر بأن مرتكب جريمة الإخلال بالأمن وتضليل المواطنين وناشر الرعب سيستخرج من باطن الأرض، سوف يعاقب، كانت التعليقات والضحكات تعم المكان،

بينما واصل المسؤول شرح طرق محاربة الإرهاب والتدابير الوقائية معللا ما جرى، تلفت سالم الطرف في الموجودين بالمقهى من العمال الآسيويين وبعض الرواد المتابعين للحدث، انسل بهدوء وهو يبحث عن سيارة أجرة..

قبل أن نسقط في البحر

قررت أن أقضي إجازة نهاية الأسبوع عند صاحبي عمر في تلك المدينة الكبيرة حيث يمكنني الخروج من روتين الرتابة والملل المستشري في مدينتي الصغيرة، شوارع مضاءة ومتنزهات وفنادق ومطاعم ودور عرض سينمائية، كان صاحبي يقول «يجب وضع علامتي تنصيص عندما تقول المدينة الكبيرة لأنها ليست كذلك»، قبل منتصف الليل هرولنا لمكاننا المتعود والعتيق، نسهر إلى وقت متأخر ثم نعود أدراجنا لشقة صاحبي ونعانق أحلامنا، تلك الليلة العجيبة، تفاجأنا بغلق متنفس سهرنا المعتاد، تبين لاحقا صدور قرار بغلقه من البلدية.

يصر الأخير عندما أزوره على أن نمتطي سيارته المزودة بإطارات كبيرة ضخمة تجعلها مرتفعة ويحتاج المرء للياقة صحية تمكنه من القفز لضهرها، في مقدمتها دعامات من الفولاذ وفوق صفيحة المحرك رسم وجه كلب عملاق بينما تعالى عمودان طويلان من المعدن على جانبي السيارة الخلفي، كانت سيارة مفتوحة بدون غطاء، قابلْنا شارعين أمام مدخل الفندق أحدهما يأخذك للداخل باتجاه السوق والآخر للشارع العام، في الجانب الآخر أضاءت لوحتا مطعمين أحدهما باكستاني والآخر صيني، قررنا أن نذهب

للأخير، الأخير ينقلك لعالم الصين التقليدي بألوانه الحمراء وتماثيل التنانين والأسود الجاثمة على مدخله وإنارة القوالب المتدلية كحبات عنب حمراء والموسيقى الصينية، كانت أسعاره في متناول اليد، طلبنا تجهيز عشاءينا في صندوقين كرتونيين صغيرين لنحملهما معنا، بدأنا بالعصائر الملونة، صفراء بعضها وأخرى برتقالية وثالثة حمراء، مرت ساعات ارتفعت فيها أرواحنا وعقولنا، دخلنا لعالم حلمي بعيد آخر قبل ان يغلق المكان بعد منتصف الليل، خرجنا نتلمس مكان ناقلتنا العملاقة، كادت سيارة سريعة أن ترفع أرواحنا أكثر، شتمنا سائقها وضحكنا بينما قمر بعيد وحزين ينتصف السماء.

أشارت الساعة إلى الثالثة صباحا، قدنا مركبتنا العملاقة لشارع السوق، بعد ثلاث أو أربع انعطافات فاجأنا قطيع من الكلاب، سوداء وأخرى بيضاء وثالثة رمادية وغيرها منقطة وتلك المخططة وألوان أخرى، تتجاوز العشرين كلبا أو أكثر، تتجول في منتصف الشارع الداخلي للسوق، ضغط صاحبي بوق السيارة فتجمعت معها أعداد أخرى، تنبح وتتقافز حول السيارة، لم تبتعد عن طريقنا، بدأت تدور حول السيارة، شتم صاحبي الكلاب وأخرج الخيزران المدسوسة في أسفل حافة كرسي السائق ولوح بها على الكلاب من جهته، لم أستطع التوقف عن الضحك على فكرة العصا والكلاب، شاهدته يركض خلف مجموعة منها ملوحا عليها بالخيزران ليضربها بينما مجموعة أخرى أكبر تلاحقه وهي تنبح، تعثر وكاد أحدها أن يعضه، رجع لاهثا واندس في كرسيه وقد تمزقت أطراف دشداشته، صرخ في وجهي « أنت شاطر بس تضحك « ، تحركت واعتليت مقدمة السيارة بينما تجمعت الكلاب بنباحها حول السيارة وأمامي أسفل السيارة، رفعت ازاري متبولا عليها، تراجعت الكلاب القريبة من مقدمة السيارة وازداد

نباحها، انتابني شعور جيد، رجعت لمقعدي، ضغط صاحبي على دواسة البنزين وهجم على الكلاب أمامه، هربت، لاحقها بعربته في الممرات الضيقة، كاد أن يلحقها ويصدم بعضها بينما عددها الأكبر يعدو وينبح خلفنا، أوقف صاحبي السيارة فجأة ثم أرجعها ضاغطا على دواسة البنزين بقوة ليدهسها فنطحت سيارتنا الضخمة مؤخرة سيارة أخرى كانت موقوفة بجانب الشارع لترتمي في منتصف الشارع خلفنا- استمرت الكلاب تتراكض وتنبح من حولنا، انطلقنا هاربين من الكلاب والممرات الضيقة وسيارة أخرى منطوحة وملقاة في منتصف الطريق.

فتح ثوب المكان على شارع بحري هادئ ومتلألئ، كان شارعا خاليا من حركة المارة، كانت أغصان الأشجار وحدها تتمايل مع هبوب نسيم رطب لطيف هب من جهة البحر، انعطفنا لشارع فرعي قرب البحر، أرجعنا سيارتنا للخلف حتى كادت أن تلامس الأمواج الخفيفة، أنزلنا كرسيين مطويين وفتحناهما وحمل عشاءنا صندوق صغير وضعناه بيننا، بدأنا نضحك من قصة الكلاب والسيارة المرمية في منتصف زقاق داخلي، قررنا أن الكلاب بألوانها المختلفة خطيرة وخاصة كلاب الليلة، هممنا بفتح صندوقي عشاءينا الصغيرين عندما انهمرت علينا الأضواء الحادة من كل صوب، هجم رجال ملثمون موجهين أسلحتهم النارية علينا وخرج من مكبر صوت أحدهم صارخا «ارفعوا أيديكم عاليا، لا تقوموا بأية حركة وإلا أطلقنا النار عليكم»، همهمت لصاحبي « أشهد الله أنه ضاع العشاء»، لم يتمالك صاحبي نفسه من القهقهة، أحاط بنا رجال الشرطة بزيهم الأزرق أو الأسود والذي لم أتبين لونه جيدا، قفز بعضهم داخل السيارة وآخرون وجهوا بنادقهم الآلية إلينا، ظهر رجل حازم منهم قائلا « من أنتم؟

ماذا تفعلون هنا؟»، بعد دقائق من الشد والجذب والتفتيش الدقيق وتقليب بطاقات هوياتنا طُردنا من ذلك المكان، الشرطي الحازم قال « وش جايبنكم هنا كنكم تجار مخدرات»، رمينا صندوقي عشاءنا الصغيرين والكراسي دون أن نطويها في مؤخرة السيارة وهربنا فوق ظهر عربتنا غير محمودين من المكان، دخلنا للشارع العام مرة أخرى، أخذنا نقهقه ثانية، قررنا أن البحر خطير والنزول للشاطئ خطير أيضا وخاصة بحر وشاطئ هذه الليلة.

وصلنا للكورنيش بجانب الشارع، أوقفنا السيارة وأنزلنا عشاءينا فقط، اعتلينا مصطبة رخامية ينضح البحر أسفلها، بين الفينة والأخرى تمر سيارة ما بسرعة، إنه مكان مفتوح، لا كلاب ولا مداهمات، كانت أنوار المصابيح ومآذن المساجد وإضاءة المحلات المغلقة الخافتة وبعض السفن الراسية تنعكس على صفحة البحر، بدأنا في فتح عشاءينا، مرت سيارة أمريكية سوداء طويلة ومعتمة النوافذ بسرعة ثم صرخت إطاراتها بضغطة قوية على مكابحها ، دارت إطاراتها راجعة للخلف مثيرة زوبعة من الدخان الأبيض، توقفت عندما حاذتنا، قلت لصاحبي إذا رأيت مسدسا أو ماسورة بندقية فأقفز للبحر خلفنا، وقفنا فوق مصطبة الرخام الأخيرة المطلة استعدادا للقفز إلي البحر، فتح باب السيارة وترجل رجل ملتحٍ قصيرُ الثوب يحمل في يديه كتبا وأشياء أخرى، نادى علينا « يا إخوان، يا شباب» ، تريثنا الوثبة في البحر، اقترب الملتحي، رفع يده مسلما، حدثناه واقفين مكاننا فوق مصطبة الرخام الاخيرة والبحر خلف ظهورنا، مد يديه المليئتين بالكتيبات والأشرطة قائلا « خذوها، تعلموا أمور دينكم، بارك الله فيكم»، انحنينا لنأخذها، هب نسيم خفيف، فقدنا توازننا، حاول صاحبي التشبث بي، فجأة كنا نحلق قبل أن نسقط في البحر.

اهتراء

انهضني علي، كان الوقت في يدي يشير إلى التاسعة صباحا، رأسي ثقيل ومعركة النوم لم تنته بعد، عادة، انهض عند الساعة الحادية عشرة صباحا أو بعدها بنصف ساعة أو ساعة، يبدأ العمل في الصحيفة اليومية الساعة الثانية ظهرا، أعمل في إعداد أخبار قسم المحليات بالجريدة؛ ليس ثمّة تحقيقات جديدة أو تغطيات مميزة، تجميع أخبار وإعادة صياغتها لتنشر في صحيفة الغد.

غطيت وجهي متقرفصا داخل الفراش الذي كان يتوسط الغرفة، لم تكن واسعة، بها سرير علي وفراش حمدان وصندوقٌ خشبي لحفظ الملابس بالإضافة إلى طاولة قديمة وكرسيين، كنا ثلاثتنا نتقاسم الغرفة غير أن علّي وهو الأقدم بالصحيفة، يعمل في القسم السياسي يمتلك سريرا حديديا يضع عليه فراشه ومجموعة من الألحفة ومخدة نادرا ما بدلها أو غسلها أو أزاحها من مكانها.

كان إزعاج علي غير مبرر تلك الساعة المبكرة، فعادة ينهض متأخرا أيضا عند الساعة الحادية عشرة والنصف منتصف النهار أو بعدها، لم أكن تلك اللحظة قادرا على الاستغراب والتساؤل حول

سبب الإزعاج تلك اللحظة، الرغبة في النوم. تقرفصت أكثر داخل الفراش وداخل البطانية الغليظة وداخل نفسي وأنا أرجو إغماض عيني وذهني وحواسي المرهقة.

تعودنا أن ننام قبل الفجر حيث ينتهي العمل بالصحيفة عند بداية اليوم الجديد، الساعة الثانية عشرة ليلا، بعدها نذهب للبحث عن مطعم رخيص لنسد به جوعنا، يمكن أن يستمر السهر لبدايات الفجر في أماكن أخرى رخيصة قريبة من السكن المستأجر والصحيفة التي نعمل بها.

كانت غرفتنا تتقاسم المدخل مع غرفة أخرى تواجهنا يقطن بها مصور باكستاني ومحرر الصفحة الثقافية بالجريدة الأستاذ نكتة وهي صفة اخترعناها تهكما من الوضع الثقافي، كانا لا يجيدان سوى لوي السجائر وتدخينها وعدم الابتسام، ما كان يدعو للابتسام هو البيرة الرخيصة التي تطفىء معها أحلام الليل والغد وما نختلف في نقاشه دائما حيث تبرز النزعات التحليلية والحقودة أحيانا على القضايا التي نثيرها عندما نجتمع، فعلي الذي يعمل في القسم السياسي بالصحيفة يعتنق مبادئ الماركسية اللينينية وضرورة ثورة الجياع والفقراء ودائما الوضع لديه منافيا للعدالة والمساواة والحرية، يسميه الصناعة الغربية الهزيلة لمعنى الحياة، كثيرا ما يعود للنوم وهو يبكي كفتاة خانها حبيبها، يظل يبكي غياب العدالة والمساواة والنزاهة والأخلاق في مجتمع رأسمالي أصولي قذر.

يعمل حمدان في القسم الفني بالصحيفة، كثيرا ما يتحدث عن الفنانين والحانات القليلة والمعارض الفنية وأيضا عن السيارات ومعنى المدن الحقيقية وتلك التي تشبه القرى. كنت قد التحقت بالعمل

بالصحيفة منذ شهر في قسم المحليات ولم تتشكل صورة واضحة عن العمل وشخصياته، كنت أتلمس صناعة الصياغات المفضلة والجاهزة وتلك الرسمية وتلخيص ومعالجة الأخبار المرسلة بالبريد الإلكتروني قبل رفعها لرئيس القسم.

إضافةً إلى المدخل المشترك كانت هناك شبه زاوية أطلقنا عليها مطبخ، بها طاولة صغيرة وإبريق كهربائي نسخن به الماء ونضيفه إلى القهوة السوداء أو الشاي كلما بحثنا عن الهدوء. كانت الغرفتان تتشاركان حماما عربيا واحدا وبه صنبور ماء متدلٍ على الأرض.

تقلبت على جانبي الآخر متأففا من الإزعاج الذي يبديه علي تلك الساعة، لا أعرف عما يبحث أو ماذا يريد أو إن كان هناك شيء ما غير طبيعي. كنت أريد أن أنام، تذكرت عبد الفتاح محرر صفحة المحليات بشاربه الغليظ والمنفوش وعمامته التي لا تتغير مع الأيام، يجلس في منتصف غرفة التحرير ويوزع الأخبار ويشطب على هذا العنوان وتلك المادة وتلك التي يريد لها إعادة صياغة، يتأفف كل لحظة دون أن يجد أحد ما الشجاعة ليخبره بضرورة أن يستخدم مزيل رائحة لعرق الإبط. كان المكان مدخنة وعرق إبط ورائحة أوراق وأحبار.

هسهس صوت علي : أخبرني يا حمدان هل حصلت؟

صوت حمدان من خارج الغرفة: كيف الطريق؟

علي: كلهم رقود ... بصحي صاحبنا ..

نهزني عليً بقدمه: هيه ناصر انهض؟

تواركت في الفراش باحثا عن سجائري، أشعلت سيجارة ونظرت الي علي:

-أريد انام.. الساعة بعدها تسعة.

-ناصر انهض شوي .. نصف ساعة وبعدها ارجع نام، سير الحمام.. سوي اي شي بس اطلع من الغرفة شوي لمدة نصف ساعة.

-وش عندك؟

-بعدين بخبرك بعدين.. تو اطلع من الغرفة.

نهضت من السرير، أحسست بصداع يطوق رأسي، سيجارتان مع كوب قهوة مُرَّة ستعيد الأمور إلى نصابها. اتجهت للحمام وأنا أدخن، مررت على الإبريق الكهربائي وعبأته بماء الصنبور وأدرت مفتاحه الكهربائي، أغلقت خلفي باب الحمام القصديري.

عندما خرجت من الحمام كان الإبريق الكهربائي قد هدأت ثورته العارمة، دحقت قليلا من القهوة والماء الساخن في قعر المشرب الزجاجي، حركته قليلا وبدأت أرشف بتمهل محاولا فهم ما حدث. كان حمدان يقف أمام الغرفة مرتديا دشداشته وعمامته وهو يدخن ويسترق النظر من ثقب باب الغرفة ثم يقهقه ثم يدخن ثم يقهقه. فجأة فتح علَي باب الغرفة وهو يرتدي أسفله إزارا ، عاريا من الصرة إلى الأعلى. لوح بطفل لا يتجاوز الثلاث سنوات في وجوهنا:

-أمسكوا عني هذا الغبن ..!!

ثم صفق الباب في وجوهنا، كان بكاء الطفل عاليا بينما حاول

حمدان تهدئته بمئة بيسة، همهمت بصوت مصدوم في حمدان:

-وش صاير ... من هذا.. وش داخل الغرفة؟

رد حمدان دون أن يلتفت إلي:

-عنده وحده وذا ولدها ...

-وش ذا الكلام

-ما تبا.. توسع عنا هناك.

كان حمدان يتكلم دون أن ينظر إلي، يحاول أن يهدئ الطفل الذي كان يصرخ:

-ماماه حالي ... حالي

يحاول أن يسترق النظر من ثقب المفتاح أحيانا أخرى، بعد دقائق قليلة خرج علي بإزاره وهو ينفخ:

-حتى الواحد لما يريد يتهنا ما يقدر.

دخل حمدان للغرفة بينما وقف علّي أمام الباب وأشعل سيجارته ثم أكمل:

-كلما... قحم ذا الغبن قدامي ... حالي .. آخر شي طلعته لكم.. هاه ناصر تبا دور ... بسلفك خمسة ريال كان تريد تجرب؟

-سود الله وجهك أنت وصاحبك.

قهقه عليَّ بقوة لدرجة أن الطفل سكت وبحلق في الرجل نصف العاري أمامه ذي الكرش الصغير والبطن الأملس الخالي من الشعر.

-اوه ناصور ياما بتشوف.. تراها طافرة .

ذهبت للزاوية وبحثت داخل درج الطاولة الخشبية، تناولت قطعة خبز أسمر يابسة وبدأت المضغ. مددت للطفل الذي لا تزال دموعه تنحدر على وجنتيه كسرة خبز قسمتها له. تناولها ورماها على الأرض، عقب علي:

-صحيح انه غبن.

خرج حمدان مرتديا دشداشته ومتوجها للخارج بينما تدلت عمامته فوق كتفه الأيمن، لم ينظر إلينا ونفخ:

-تبعيني.

غياب

كانت الساعة تقارب منتصف النهار، الشمس عمودية، وقفت عائشة العجوز ملوحة بيدها للسيارات العابرة بينما حملت يدها الأخرى حقيبة صغيرة، كانت ترتدي لحافا أخضر موشّى بخيوط ذهبية تتدلى من حوافه، ترتدي أيضا سروالا موشى بالزري الفضي ويغطي ركبتيها ثوب عماني جميل يميل للون البحر، توقفت حافلة ركاب صغيرة، بها مجموعة من الناس، بعضهم مواطنوها، آخرون من سحنات مختلفة، آسيوية وأفريقية، فاجأها السائق عندما قال لها وجهتها، هزت رأسها مؤكدة، كانت عطشة وجائعة، لم يبل حقها شيء غير ريقها منذ الفجر عندما قصدت مستشفى العاصمة المرجعي لموعدها مع ابن جارهم، الأخير تركها امام بوابة المستشفى واختفى ليلحق على بداية عمله، افرغ الركاب الاخرون الكرسي خلف السائق لعائشة، تكدسوا بالكراسي الخلفية، انطلقت الحافلة دون توقف لمدة تزيد على نصف ساعة، كانت المدينة تصغر وتختفي بعض أجزائها بينما الحافلة تشق دربها بين الجبال، هبت نسمات باردة من مكيف الحافلة جعلت عائشة تغمض عينيها قليلا لتصحو على صوت السائق مرة أخرى وهو يمد لها بقنينة مياه باردة.

-تفضلي عائشة شربي.

-أحسنت وجزاك الله خير، الله يسقيك من الجنة، بس أخوي من انته ومن هين تعرفني؟

توقفت الحافلة ونزل ثلاثة من ركابها، أخذ السائق أجرته وانطلقت الحافلة مكملة طريقها، صدحت أغنية من مذياع الحافلة الصغيرة، لم ترغب عائشة في إعادة سؤالها الذي لم تجد له إجابة بعد، انتهت الأغنية ولم تنته ظلال الجبال الكثيفة، كانت أخبار منتصف النهار هي الصوت الذي يتأرجح في المكان، مر وقت لم تستبنه عائشة وقد فتحت عينيها على توقف الحافلة وخلوها من الركاب إلا امرأة وطفلها الصغير تقعد خلفها مباشرة، عندما أكملت الحافلة طريقها ثانية قال السائق موجها كلامه لها وهي خلفه مشيرا بيده لمكان ما في الجبال المحيطة:

-عائشة بلف شوية هنا، ربع ساعة إلى ثلث ساعة وما بتأخر أودي حاجة كان ما مشططة

-ماشي باس.

كانت المرأة والطفل الصغير ذو الخمسة أعوام يجلسان خلفها، هادئين لا يتكلمان، لم تمانع أيضا، أحست بأن سائق الحافلة يعرفها وربما من مدينتها أو أحد جيرانها، كان رجلا تخالط بياض وجهه حمرة وذا لحية بيضاء خفيفة، يعتمر عمامته بطريقة مميزة، طريقة مألوفة، بدا وجهه مألوفا لها كذلك.

لم تنتبه عائشة للطريق الترابي الذي أخذته الحافلة بعيدا

عن الطريق العام المعبد، انتبهت إلى تكشف مدينة كبيرة بناسها وشوارعها وحاراتها ومحلاتها وأسواقها، لأول مرة تشاهدها رغم أنها طوال حياتها التي تمتد إلى الستين عاما تعبر في ذهابها وإيابها من ذات الشارع العام ولم تلحظ هذه المدينة الكبيرة، سوف تسأل السائق عن اسمها، فجأة توقفت الحافلة وقفز السائق حاملا صندوقا خشبيا صغيرا بكلتي يديه ووضعه أمام أحد الأبواب وطرق الباب الحديدي عدة مرات قبل أن يعود للحافلة ويحمل عدة أكياس صغيرة أخرى ويضعها بجانب الصندوق الخشبي، عندما فتح الباب خرج مجموعة من الأطفال فرحين بتلك الأغراض، سمعتهم يصرخون إنه عمي، ظهر رجل آخر عند الباب، كان يرتدي قميصا أبيض وإزارا، تكلم قليلا مع السائق الذي عاد وركب الحافلة، سمعت عائشة ما تبقى من الحوار

-عندي ركاب لازم أوديهم وبعدها برجع للغداء، لا تنتظروني.

انطلقت الحافلة تشق طريقها عائدة من وسط تلك المدينة الكبيرة، شد عائشة كثرة منارات المساجد وقبابها الجميلة، أيضا الأشجار الخضراء والنخيل الباسقات، البيوت بلون الجبال تميل للحلكة إلا أنها جميلة، مدينة تحت حافة الجبال العملاقة، سألها السائق عن ابنيها محمد ومياء وما هي أخبارهما، إنه يعرفني، رددت في نفسها وبدأت تسرد له أخبارهما، الأول يعمل في القوات المسلحة في الحدود الجنوبية ومتزوج ولديه ولدان طارق وناصر الذي هو اسم والده، ومياء في شهرها الأخير وهي حامل بمولودها الأول وكانت تريد أن ترافقها لموعدها في المستشفى إلا أنها رفضت ذلك خاصة وأنه لا يوجد من يوصلهما ويرجعهما بسيارة خاصة للبيت ولبعد

المسافة وعناء الطريق، وبينما هي تسترسل في حديثها عن أبنائها توقفت الحافلة مرة أخرى ونزلت المرأة وطفلها ثم انطلقت من جديد، سألها الرجل عن صحتها وما آلت إليه مع الأيام، أخبرته إنه منذ وفاة زوجها قبل نيف وعشرين عاما مرت بها أمراض كثيرة وما إن تتخلص من مرض لتقع في آخر وإنها قد أجرت عمليات كثيرة، كانت تذكر التفاصيل وكانت تحمد الله على كل حال، بدت بعدها تظهر في الأفق مدينتها وتقترب، لم تخبر السائق عنوان المنزل لإحساسها بأنه يعرفه، إنه يعرف الكثير عنها وعن عائلتها، وهكذا وجدت نفسها أمام باب منزلها، نزلت من الحافلة وسألت السائق أن يوقف سيارته ليتقهوى أو ليشرب ماءً، شكر السائق لها الدعوة وأصر على أن لديه الكثير من الأعمال ليقوم بها، سألته عن قيمة الأجرة المستحقة فرفض أخذها مما زاد في دهشتها، حلف بعد إصرارها أنه لن يأخذ منها شيئا، سألته عن اسمه ومن يكون؟، تهرب من السؤال وهو يحرك الحافلة قليلا ليذهب

- بتعرفيني، سلمي كثير على محمد ومياء.

بدأت الحافلة بالتحرك ببطء في البداية قبل أن تنطلق وتختفي بينما كانت عائشة واقفة في وجوم تنظر إلى غبارها المتواري، فتحت مياء ابنتها باب البيت خلفها، تصلب وجه عائشة، كانت بوجومها ووقفتها تشبه جذع شجرة يابسة، هزت مياء كتف أمها لتلتفت لها الأخيرة بينما الصدمة تغمر وجهها

-مالك ماه، سلامات عسى ما شر

-إنه..إنه... أبوك يسلم عليك وعلى أخوك محمد.

الأغنام

تغني فيروز « ناس من ورق» فتزداد السيارة رحابة، همهمت بداخلي: إنها أغنية لا تغنى بشارع رئيسي ميت من حياة الاخضرار وروحها، تمتد أمامي الجبال والصخور والإسمنت والأسفلت، أرد على الهاتف النقال، كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحا وأنا أنعطف في طريقي للعمل، أغلقت الهاتف.

ترددت الجملة بعقلي ثم بصوت هادئ: « غنم داخل الضاحية»، كنت قد تملكتُ هذه الضاحية منذ بضعة أشهر بعد سنوات طويلة من الإجراءات والمتابعات لدوائر الحكومة والورثة والتقاضي، أعدت تشييد جدارها من جديد بسبعة مدود من الطابوق والإسمنت، فتحت لها بابين أحدهما كبير لدخول السيارة والآخر صغير، اتفقت مع عمال بناء لبناء غرفة ودورة مياه، بحثت عن عمال باكستانيين لتنظيف البئر، اشتريت محركا لضخ الماء مع مواسير وأنابيب وجلبت ميكانيكيا لضبط سحب الماء؛ النخيل التي لم تثمر في السنتين الأخيرتين بسبب الجفاف، اتصلت بابن خالي طالبا مساعدته في

مد سلك الكهرباء من ضاحيته لتشغيل مولد الماء، اتفقت مع عمال مزارعين آسيويين يعملون في مزرعة أخي على رعاية الضاحية وسقايتها مقابل مبلغ مالي كل شهر، جلبت أشجار مانجو وليمون وبرتقال وغرست شجيرات زيتون إيطالي بعدما أقسم بائعها بأنها أفضل الأشجار في نوعها.

كانت الضاحية تقع بين عدة ضواحٍ أخرى كبيرة مملوكة لآخرين، يفضي إليها طريق ترابي بين ممرات النخيل، ممر ضيق يتسع لعبور حمار بثوجه، لا يمكن لسيارة ولوجها ، محاطة ببساتين النخيل الأخرى، كانت بساتين نخيل ذات أسوار من اللبن وأغلبها ضواحٍ غير مسورة، أحيانا تبدو بقايا سور غير مكتمل من الأسلاك أو الأخشاب المهترئة، بساتين مفتوحة، عادة، البساتين الداخلية لا تحتاج إلى جدران أو أسوار عالية، فلا توجد حيوانات سائبة أو أخرى ترعى ويمكن أن تخربها، بساتين أخرى مطلة على الوادي، مسورة وبها أبواب كبيرة وأحيانا أبواب صغيرة، يمكن وصف الضاحية بأنها مُسوَّرة وذات بابين مغلقين وسط ضواح مفتوحة متهالكة جدرانها وتلك أخرى ذات أسوار خشبية رثة.

تقلص هدوئي بسرعة، لم أستطع أن أجيب الأسئلة التي اندلقت داخلي، من الذي ساق تلك الأغنام إلى داخل الضاحية وأغلق عليها الباب لتعيث فيها فسادا؟ لا يمكن أن تتسلق تلك الأغنام جدار الضاحية ذات السبعة مدود من الطابوق والإسمنت والحديد والأسلاك الشائكة ولا يمكن أن تنسل من فتحات مجرى الفلج، فتحات مشبكة بالحديد تسمح للماء بالعبور منها وتوقف ما حجمه قبضة اليد، لا يمكن أن تنسل منها الأغنام، كان افتراض أن الأغنام دخلت للضاحية

من تلقاء نفسها يتقلص، ولكن لماذا؟ لماذا يرغب أحدهم في أن يسوقها إلى داخل هذه الضاحية بالذات ويغلق عليها؟ وما الهدف من ذلك؟ ولمن هذه الأغنام؟ وكيف الخروج بأقل تكلفة وضرر من هذه المشكلة؟ كانت مثل هذه الأسئلة تتزاحم في رأسي وأنا أجلس في عملي متظاهرا بتقليب الملفات.

رد صديقي مستبشرا: « إذا ما تريد الأغنام بجيهن واشلهن عنك» دون أن يعي حجم المشكلة من اقتراحه ذاك. ابتسمت بفتور: متسرع كعادته، علقت جارتنا العجوز شيخة بعد معرفتها بالموضوع: « إنها قرية ضالة، يبحثون لك عن المشاكل ويسوقونها لك وإن كنت بعيدا عنها».

ابن عمي هو الآخر أكد « ذي بغيّة» حاولت أن أتذكر ما يعنيه كل ذلك، البغية لها معانٍ كثيرة ولكن هنا تعني شيئا واحدا، إنها المكيدة ولا غيرها، أغلقت هاتفي وحاولت أن أنجز شيئا من عملي، كان إحساس ما يتملكني بأن هذه الحادثة لا يمكن أن تكون طبيعية، التفسير الوحيد الممكن هو أن أحدًا ما فتح الباب لتدخل الأغنام إلى الضاحية ومن ثم حبسها بإغلاق الباب خلفها.

عرفت أن الطريقة القانونية هي أخذ الأغنام إلى حظيرة البلدية في الولاية قبل الساعة الثانية عشرة ظهرا، المسؤول عن حظيرة البلدية لا يستقبل أية أغنام بعد الساعة الثانية عشرة ظهرا، أعبئ استمارة بذلك ومن ثم ستكون مسؤولية البلدية إطعام الأغنام إلى أن يأتي صاحبها ويستلمها، وفي حالة رغبتي بالتعويض عن الأضرار التي لحقت بالضاحية عليّ أن أتوجه للمحكمة لرفع دعوى قضائية على صاحب الأغنام الذي يمكن أن يتحجج بأمر ما وتؤجل القضية

لأكثر من مرة وأن يطلب معاينة الضرر اللاحق بي ومن ثم تؤجل القضية مرة أخرى، وعندما يحكم القاضي فإن المدعى عليه يحق له أن يستأنف الحكم في محكمة الاستئناف مرة أخرى، إن صدر الحكم لصالحي يمكنه أن يستأنف مرة أخرى في المحكمة العليا ويمكنه عند صدور الحكم في العليا أن يجد طريقة ما لتأخير التنفيذ أو التهرب منه، القصة يمكن أن تستغرق سنوات، كما أن هناك مسارب أخرى كلجان المصالحة وتدخلات الشيوخ والأعيان، سيناريو طويل وممل، إنها طريقة تريد ربيعها.

عنت ببالي قصة جدي الأول الذي أطلق رصاصة على قدم بدوي حاول إخراج أغنامه السائبة التي ألحقت الضرر ببستانه، حاول جدي أن يقنع الرجل صاحب الأغنام السائبة دفع غرامة مالية عن الخراب الكبير الذي تسببت به أغنامه، ولكن البدوي سارع إلى إخراج أغنامه من المكان دون أن يلتفت إلى جدي. استشاط الأخير غضبا وكانت بيده بندقية من النوع العماني فوجهها إلى الرجل الذي لم يلتفت ولم يهتم وإنما كان مهتما بإخراج أغنامه من البستان مما دفع جدي إلى ضغط الزناد ليكسر قدم البدوي صاحب الأغنام. لم يكن يريد قتله وإنما كان يريد حقه من خراب أوقعته ماشية الرجل ببستانه. كبرت القضية وانطلق الرصاص بين القبيلتين المتجاورتين والمتحاربتين منذ عقود وكادت أن تستحل الدماء لولا حكمة الشيوخ وتدخل القبائل الأخرى والأحلاف من الجانبين لوأد القضية قبل استفحالها، إنها قصة معروفة في القرية، قصة انتهت بأن يغرم الرجل صاحب الأغنام ثمن الضرر الذي ألحقته أغنامه بالبستان وأن يغرم جدي ثمن الكسر الذي تسبب به لقدم ذلك الرجل.

عندما وصلت لقريتي عند الخامسة عصرا قاطعا مسافة تزيد على مائتي كيلومتر بعد نهاية عملي، كانت الأغنام قد زُربت في الحجرة الاسمنتية بالضاحية. قطيع يزيد على الستة عشر رأسا، متعددة الأنواع، فمنها الجبلي ومنها أغنام الشواوية ومنها الأغنام الجامودية وأغنام السوالم والرحبه، أغنام تتشابه في أنها أغنام مرعى وليست أغنام حظائر خاملة. قدّرت بداية أنها أغنام لأحد البدو القاطنين جوار القرية، أغنام سوداء وحمراء وأخرى شهباء، راهية. سال لعاب صاحبي الذي التقاني هناك وقال: «الوحدة ما تسدها مائة ريال، خلنا نسوي بهن مضبي» كانت فكرة جيدة لو أني بمزاج جيد ولا أحسب عواقبها، لقد تغيرت الأمور كلها، كان ذلك ممكنا قبل فترة من الزمن البعيد، عندما كان أهلك وجماعتك وأصدقاؤك صفا واحدا، صفا واحدا في الصلاة وفي الحياة. اليوم تخشى من أقرب الناس، لا أحد مستعد لأن يقف إلى جانبك، كلهم سيبتعدون عنك أمام أول امتحان. بعض كبار السن ممن تبقوا يحكون أن راعيا آذاهم بماشيته وتخريبها لمزروعاتهم، كانوا كل مرة يردون إليه أغنامه، مسامحين عن الغُرمِ. وعندما تكررت الحادثة اضطروا لتغريمه مبلغا من المال، لم يثنه ذلك وتعودت قدماه وأقدام ماشيته على خراب ضواحي الناس. شكَّل المتضررون من أهل القرية فريقًا منهم وكانوا أيامها شبابا لا يفكرون في الخسارة، رجال ما صعصعها القتال كما قالوا، يتغنون ويفتخرون بترك دم الأعداء سائلا على التراب والحصى ساعة النزال. اختاروا أفضل جديان الراعي وذبحوه في مكان منزو، تغدوا وتعشوا بتلك الذبيحة. تردد الراعي كثيرا على القرية وأهلها محاولا أن يعرف أين ذهبت ذبيحته ولكنه لم يجد أذنا أو لسانا معه، الجميع وقف موقف الناكر للموضوع، كان درسا قاسيا لم يعد بعدها الراعي يطلق أغنامه على بساتين الناس، لقد تأدب، قلت لصاحبي «

اليوم جرّب أن تضرط وسوف تسمعك البلدان البعيدة قبل القريبة».

تتبعنا آثار دخول الماعز للضاحية، كانت تشير إلى دخولها من الباب الحديدي الكبير الذي كان مغلقا وليس مقفولا، لا تستطيع الأغنام أن تفتح مزاليج الباب ولو تطورت خلال ألف عام كما يقول داروين. المزاليج أربعة؛ اثنان من الأمام واثنان من داخل الضاحية، مزلاج من المنتصف وآخر من الأسفل. كنت أحتاج إلى النزول والالتواء لأفتحها، البعر وآثار حوافرها واضحة على الطريق الترابي القادمة منه، كانت أغنامًا عجولة؛ ترددت في البداية في دخول الضاحية، وصلت لمنتصف الطريق الآخر، وشيء ما أرجعها بسرعة لكي تدخل هذه الضاحية، هذا واضح من الآثار، لم تتوقف في أية ضواح أخرى غير مسورة أو مشبكة، بدا واضحا أن هناك من شطها وركض خلفها، لقد مرت آثار خطواتها في سواقي أكثر من ضاحية أخرى ولم تتوقف لتأكل من أعشابها أو مزروعاتها وثمارها الدانية. شيء ما يستعجلها، أحد يركض خلفها، شخص أو أكثر، مرت أيضا على أكثر من باب حديدي ووجدته مردودا فقط، هناك من فتح لها لتعبر من تلك الأبواب، أجبرها أن تدخل من الفتحة التي أحدثها الوادي أسفل أحد الأبواب الكبيرة في أحد البساتين المطلة على الوادي، حثها وفتح لها أبواب الضاحية النهائية ليزربها فيها، كل المعطيات تدل على ذلك.

اتصلت بابن عمي، يعمل محاسبا في شركة قريبة من القرية، أخبرته عن قصة الأغنام وخرابها، سألته أن «يتطقس» من هنا وهناك ليعرف صاحبها ويخبرني.

كنت أدرك أن التاريخ حاضر وله سطوته غير المرئية، الأغنام

لها تاريخ أيضا، قد يكون تاريخا مسكوتا عنه، تاريخا حقيقيا في هذه البقعة من الأرض، إنها أحد عناصر الإنتاج التي قام عليها المجتمع الرعوي والزراعي، عادة لا ينتبه الناس لتاريخ الأشياء، ضحك صاحبي من كلامي السابق عن تاريخ الأغنام وغمز بطريقته التي أعرفها جيدًا: « زين يسويو خطبة جمعة بعنوان: من تاريخ الأغنام»، أخبرته بأن هناك إماما من أهل عمان، تدخل ليفك اشتباكًا وصراعا بين أسرتين بسبب شاة. الأسرة الأولى نشحت مرواحهامن التمر في بقعتها المعتادة من أرض فضاء، هجمت أغنام أسرة أخرى وأكلت ذاك المرواح اللذيذ، هشتها صاحبة المرواح بعصاها لتبعدها فضربت إحداها وقتلتها فاحتجت راعية الأغنام على صاحبة المرواح، لتشتبك الألسن بالبداية وتتطور الأحداث للعراك بالأيدي والعصي بين المرأتين، تدخّل الرجال من الأسرتين ثم العائلتين الكبيرتين، تلقى الإمام نفسه ضربة على رأسه من إحدى تلك العصي الثخينة وسط تلك المعركة وهو يحاول أن يفصل بينهما، ليلقى حتفه من ساعتها، أليس هذا تاريخا، ضحك صاحبي وقال: « هيه ألف أنته ألف»، استرسلت أخرى، كانت هناك حرب شعواء بين العمانيين المنقسمين إلى فريقين لا ثالث لهما، وكان الفريق الأول هو المنتصر في أكثر من معركة ويتتبع قائد الفريق الثاني الذي كان هاربا من مكان لآخر طالبا الإجارة والعون، أتدرى ما الذي فرّق الفريق الثاني القوي؟ مجموعة أغنام، نعم مجموعة أغنام استولى عليها بعض شيوخ ذلك الفريق غمطا وقوة من رعاة اشتكوا أمام رئيس ذلك الفريق وبحضور الناس فوقع رئيس الفريق في قضية مبدئية وهامة وخطيرة وربما كانت مكيدة من الأعداء، إن هو انتصر للعامة ورد الأغنام إلى أصحابها فقد كسر شوكة أولئك الشيوخ أمام العامة، وإن هو انتصر للشيوخ ودعم موقفهم فقد أظهر ضعفه عن مناصرة الناس

والفقراء خاصة وما يتطلبه العدل، وقد يُعرف عنه أنه لا يقيم العدل وهو الشرط الأساسي لكل إمام. انتصر الإمام للفريق الثاني من عامة الناس، انتصر للعدل فخسر الحرب لأن الشيوخ ورعيتهم انسحبوا من فريقه. أليس هذا تاريخا؟ الأغنام لها تاريخ يا رجل.

اقتربت الشمس على المغيب، أجريت عدة اتصالات لمعرفة صاحب الأغنام المزروبة، ملأنا عدة سطول بالماء داخل الحظيرة، اتفقت مع العامل على أن يطعمها صباحا ومساء من الحشائش المتوفرة. كنت متيقنا أن صاحبها يبحث عنها، إنها غالية الثمن وتساوي مبلغا كبيرا من المال، كانت أغنام مرعى محلية وليست حبيسة الحظائر، طعمها لذيذ وشهي وليس به «صنة» الأغنام الحبيسة، أغنام سعيدة تنطلق كل صباح لتنشر ثغاءها ودعاءها في الفلاة والوديان والسهول.

قلبت المسألة في رأسي وأنا عائد ليلا إلى مدينة عملي، من يكون هذا الحاقد الذي زج بها داخل الضاحية؟ وما الهدف من ذلك؟ ومن الأشخاص المحتملون؟ وما ردة فعلي المتوقعة منه؟ وما خياراتي الممكنة أو ما الذي يجب عمله؟ كانت الأسئلة والخيارات كثيرة ومفتوحة. القصة ليست بالبساطة التي تبدو عليها، إن وراء الأكمة ما وراءها، لذا يجب تفصيص الأشياء، التاريخ ليس عابرا، إنه معاش ويعود أحيانا على هيئات أو رسوم أو خيالات وقصص قد تكون قريبة من سابقاتها لحد التماهي، أحيانا أخرى بهيئات جديدة.

تذكرت الموقف الأخير مع ولد عائشة، له ضاحية قريبة ومعها نصيبها من ماء الفلج، ساعة كاملة كل عشرة أيام. يعمل موظفا في إحدى الشركات الحكومية ذات الرواتب العالية، كنت يومها قد

أوقفت سيارتي على مدخل الشرجة الصغيرة على فم الطريق الضيقة الأقرب مسارا للضاحية. فضلت الترجل والمشي، لم أكن أنوي التأخر كثيرا، شمس عامودية بمنتصف الظهيرة، قدرت أنه نادرا أن يتجول الآخرون في تلك الساعة الملتهبة، يبتهجون بمكيفات الهواء وهي تنعم عليهم ببرودة لا يمكن أن يتخيلها أجدادهم في الأحلام، ساعة فرار السحرة لحرارتها، ترجلت مهرولا ومتقيا سياط الشمس بعمامة فوق رأسي. لم أتأخر كثيرا، ربما عشر دقائق، عندما عدت وجدت سيارة ولد عائشة تقف خلفي وتغلق عليّ طريق العودة، لا يوجد طريق آخر، دعست على مزمار السيارة مطولا، في البداية لم أكن أعرف أن تلك السيارة تخص ولد عائشة ذاك، لاحظت قدوم سيارة أخرى لكنها وقفت بعيدا فوق التل ولم تنزل، إنه سالم بن خميس راعي الخنجر، ترجل هو وسلّم كلٌّ منَّا على الآخر، وكالعادة تساءلنا عن الأخبار، ظهر حينها من الطريق الضيق ولد عائشة دون أن يحيي أو يسلم، توجه لسيارته في سابقة ليست من عادات قرى الريف، عاجلته مستوضحا: لقد قطعت وأغلقت الطريق يا مصبح، لوح بيده عاليا مستنكرا كلامي وهو يركب سيارته: «الطريق ليس ملكك وما عندك إثبات فيه، وانته قاطعنه وعندك اماكن اخرى توقف بها» حرك سيارته قليلا لكي أتمكن من الخروج بسيارتي، همس الملقب براعي الخنجر الواقف بجانبي: «مات ناصر بن حمود وهرت الكلاب»، كانت تلك إشارة واستنكارا من راعي الخنجر لتصرف مصبح الضاج بقلة الاحترام.

كان ناصر بن حمود شيخا ذا مكانة كبيرة في عموم المنطقة وهو من أتى بأجداد مصبح من بندر صور كعبيد وإماء، أشرت بيدي مهدئا واتجهت لسيارتي وأخرجتها من الطريق بعدما ضغط

مصبح سيارته خارجا من الطريق الضيق ومثيرا كومة من الغبار في وجوهنا، كان ذلك أحد المواقف القريبة التي حدثت معي وربما حركت ما وراء الأكمة، تبدو الأشياء طبيعية وعادية ولكن هناك نارا تصهل بين الضلوع وتذُق حوافرها بعنف مؤججة غبار السنين، استبعدت أن يكون مصبح ولد عائشة هو الفاعل، لم يحدث قط أن صار موقف سيئ بيننا، كنت من القلة الذين يحترمون الناس لإنسانيتهم؛ وليس لأصولهم أو تاريخ أجدادهم، أيضا لم أسعَ يوما للتعليق على أحد ما بمثل ذلك التعليق، وربما هذا لا يحسب لي عند جماعتي، يعتقدون أني جبان أو متردد، لقد سعيت في موقف آخر إلى إخراج أخيه من السجن بعدما عمل حادثا وهو سكران، لكن الأشياء وإن كانت جيدة لا يتذكرها الآخرون عنك ساعة الحاجة، سيكيلون لك طنا من الشتائم وإن لم تكن صحيحة.

عنَّ ببالي أيضا خالي سعدون المشراط، المشراط رجل كبير حسود، سبق أن أتى متقفراً وكأنه سيقنص وعلا سارحا في شراج الوديان بين الأكمات. كنت ساعتها أحرث النخل وأساوي الدكوك الترابية، نظر مطولا للضاحية، شاهدته قبل أن يصل إلى جدار الضاحية، متجها لضاحيته التي يفصل بينها وبين ضاحيتي جداران عاليان، قبل أن ينطق بكلمة، وكمن يكتشف وجها مجهولا بادرته بالسلام، رد السلام وسألني:

- كيف الطوي معك، شي فيها ماء؟
- شيء بسيط
- كم يعني يشتغل الناطور؟

- عشر دقائق

- أكيد فيها كبس، جيب لها عمال وخلهم ينظفوها وحفرها زيادة، ولا من سمع ولا من درى

- لا لا لا ما يصير لازم استخرج تصريح وبعدها ممكن اشتغل بها

- خلي عنك التصريح، محد بيشوفك هنا، نزَل العمال وعمقها ولا حد يعرف، ليش تربش عمرك بالحكومة

- اليوم القانون فوق كل حد وما أقدر أسوي شورك

- ...

- ...

كان حوارا طويلا يحاول فيه أن يستخلص مني منهجية عملي، كنت أعرف أنه أول من سيبلغ الجهات المختصة في حال مخالفتي للقانون. هناك حبس؛ وهناك غرامة وهناك محاكمات، قصص سيئة في حال اكتشاف تلك المخالفة، لذا كنت واضحا وتركته لسبيل شيطانه وإرادته. كان يحلم بأن تكون هذه القطعة من الأرض له، حيث الماء، البئر، يكاد الحصول على تصريح حفر بئر جديد مستحيلا، يحتاج للكثير من المتابعة والعلاقات ويحتاج بداية إلى تملك ملكية حكومية في الأرض نفسها وهو ما لم أسع لأمتلكه بالإضافة الى أفواه جيران صامتة. في أوقات الجدب تموت زراعة حمدان المشراط، وتزدهر

فقط في الخصب وهو أمر نادر، عندها فقط يستطيع أن يزرع تلك الأرض التي يمتلكها.

ذات نهار بعيد وقبل أكثر من عقدين كنت جالسا بجانب جدي الذي كان المشراط يكرهه كثيرا، وبصورة علنية حثا جدي التراب في وجه المشراط عندما طلب الأخير قسما من ماء تلك البئر، أذكر هذه الحادثة كأنها أمامي الآن، أذكر أيضا أنه عيَّر خالي لبيعه جزءا من نصيبه لأمي وبالتالي لي، كان بالنسبة لي شخصًا حقودًا ولا يمكن أن يقدم نصيحة لوجه الله، أذكر أنه كان يتعمد دحرجة الصخور الكبيرة في الشارع ليلحق الأذى بسيارات الناس، لم يشتر لبخله أو لبخل أولاده شيئا من السيارات، يفضل أن يشترى قطعة أرض على أن يشترى شيئا ما يسهل استهلاكه كالسيارات، قلت لنفسي ربما بسبب حقده ساق الأغنام إلى داخل الضاحية، كنت لا أملك دليلا على افتراضي هذا، كما أن المشراط بالرغم مما سبق يبقى خالي البعيد، لذلك بحثت عن افتراض آخر.

قلبت الصور والحكايات العجيبة لعلي أجد شيئا ما ينير بصيرتي أو يقرب الخيوط في اكتشاف الفاعل، حاولت أن أخرج من التفكير الضيق، كنت قد تتبعت مسار دخول الأغنام من الوادي وتسربها من تحت فتحة أحد أبواب الضواحي الأخرى، لاحظت أنها لم تتوقف، كانت مسرعة ولم تجد وقتا لتأكل من تلك الأماكن ما هو شهي وأخضر وسهل، كما أنها رجعت من الطريق الطويل لتغوص في الطريق الضيق الذي يصل للضاحية، أحد ما كان يلاحقها، هل يستطيع فرد واحد فقط أن يركض خلفها وأن يصدها وأن يسوسها وأن يدخلها للضاحية ومن ثم يغلق عليها، يبدو أن هناك أكثر من

شخص، يبدو أيضا أنه يعرف المكان جيدا، ربما شخص واحد وربما شخصان، الأرجح أنهم أكثر من شخص واحد، الاتصال أتاني من العامل الآسيوي الذي يعمل في مزرعة أخي بعيدا عن هذه الضاحية، كنت قد كلفته بسقي ومتابعة الضاحية والشتلات الجديدة وريها وسقيها بصورة دائمة دون أن أزيد له أجره الذي اتفق أخي عليه معه، كنت أحيانا أمد له بمبلغ ما، ولكن ليس بصورة ثابته ومنتظمة.

تذكرت أنه في عصر أحد الأيام القريبة، دخلت مزرعة أخي بصورة مفاجئة، يعمل بها أكثر من خمسة عمال من جنسية آسيوية واحدة، صادفت عبود اليابس وقد أخفى سيارته تحت شجرة زام عملاقة حتى لا تكون في الواجهة المقابلة للشارع والمارة، بدت الشمس واهنة وهي تقترب من الغروب، فاجأني وجوده بأن أخي قد طرده ذات مرة منها، سلمت عليه وسألته عن الغرض من وجوده في هذا المكان، تلعثم في البداية ثم كذب بصورة مفضوحة، قال إنه يتمشى ويتجول في الأنحاء، ولكنك لا تملك هذا المكان ببساطة، قلت في نفسي وقد كشفت كذبه، لذلك ظللت أحدثه لأكتشف حقيقة وجوده، أسأله تارة عن إخوته، ومكان عملهم، وكم من الأولاد لديهم، وعن من تزوج منهم ومن بقى دون زواج، وعن والدته ووالده، وعن عمله، كاد أن يجن من حديثي وأسئلتي المملة وهو لم يستطع الفكاك مني، أثناء ذلك حضر أحد عمال المزرعة وهو يحمل حزمة كبيرة من البرسيم قدرتها بمنين ووضعها في سيارة اليابس الذي ودَّعني بصورة عاجلة وهرب بسيارته من المكان، سألت العامل عن تلك الحزمة فبدا ارتباكه وأخبرني بأن أخي متفق معه عليها، اتصلت بأخي وأخبرته فاستشاط غضبا من العامل، أعتقد أن ذلك العامل قد أضمر لي حقدا ما لأني لم أساهم في سرقته وفساده، لكن هل يعقل أن

يكون هو من أدخل الأغنام إلى الضاحية لينتقم مني جراء ما لحقه؟.

كانت الأسئلة والإجابات والالتقاطات تراوح مكانها وأحيانا تختفي لتحل محلها قصص قديمة تصلح أن تكون سببا لافتراض الفاعل، أعطتني تلك اللحظات فرصة لمراجعة علاقتي بالمكان والناس، أحسست بغابة مظلمة أمامي، شيء لم أره من قبل، شيء موحش ومخيف، يجب أن تكون كالآخرين صارما ومبتسما للضرورة، الصفة الأخيرة تبدو الآن مهمة، وإلا سترفسك الحياة بحافرها الأعوج.

مساء اليوم التالي، اتصل ابن عمي، لقد عرف مالك الأغنام، أحد البدو القاطنين على مشارف القرية، لم ترجع أغنامه منذ أيام، يريد استرجاعها، اتفقت معه عصر يوم الجمعة القادم عند الساعة الرابعة مساء وألا يتأخر وأن يصف له المكان. اتصلت بالعمال ليأتوا، وبأخي ليكون حاضرا وشاهدا.

كانت السماء صافية وذات زرقة خفيفة، الحرارة عالية ومتعبة، انتهيت من سقي الشتلات التي تبقت وتلك التي آملت أن تبقى حية بعد أن قضمتها الأغنام. حضر عمال ثلاثة من مزرعة أخي، ساعدوني في سقي الأشجار، عند الرابعة وعشر دقائق حضر أخي وفتى يناهز العشرين من عمره، تصافحنا، اعتذر البدوي عن فعل أغنامه، حلف يمين الله أنها لا يمكن أن تدخل إلى الضاحية، إنها عالية الجدران وأبوابها من حديد فكيف تقفز أو تدخلها، أكد فرضية أنها مكيدة للإيقاع بيننا، في البداية كنت أستمع أكثر مما أتكلم، تحدث أخي بعدها وطلب أن أسامحهم مقابل تعهدهم بعدم العودة لمثل هذا الفعل، أوجزت الحديث بضرورة أن ينتبه لأغنامه وإلا أكلها أحدهم

مضمنا حديثي لغة تهديد بأنه لن يجدها في المرات القادمة.

عندما أطلقنا تلك الأغنام من محبسها ولت راكضة باتجاه الباب، كان العمال قد أغلقوا الطريق أمامها لتعود من الطريق الذي أتت منه، لم أخبرهم بذلك، لاحظت أنهم يعرفون مسار تلك الطريق التي قصصت أثرها، كانت تركض مجتازة النخيل والأعشاب والأشجار الخضراء، تتبع الطريق القادمة منها، تبحث عن أبواب الفضاء الواسع، كان العمال يركضون ويصرخون خلفها كي لا تتوقف لتأكل من خشاش الأرض وزرعها..

سلطان العزري

قاص وروائي صدر له:

- تواطؤ، مجموعة قصصية، 2006

- سفينة نوح، رواية، 2012

للتواصل:

الإيميل: Smmazri123@gmail.com

المدونة: https://opininghands.blogspot.com/

إصدارات نزوى :

- سيف الرحبي: حوار الأمكنة والوجوه بالاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة والفنون بمصر.
- إبراهيم المعمري: بهو الشمس.
- عبدالله الحراصي: دراسات في الاستعارة المفهومية.
- يحيى المنذري: بيت وحيد في الصحراء.
- محمد المحروقي: مغامر عُماني في أدغال أفريقيا.
- زوينة خلفان: المرأة الواقفة تجلس.
- هلال الحجري: هذا الليل لي.
- طالب المعمري : القِفَار.. سردًا.
- يحيى الناعبي : حياة بين شاهدتين.
- يونس الأخزمي : نقوش.
- عبدالله البلوشي: معبر الدمع.
- ناصر البدري: هل؟
- هدى الجهورية: الأشياء ليست في أماكنها.
- عبدالمنعم الحسني:«دراسات في التصوير الضوئي».
- أحمد الهاشمي: بيتٌ فوق سقف العالم.
- إبراهيم سعيد: سحر الكلام.
- هلال الحجري: حداثة الأسلاف.. إضاءات من الشعر العُماني القديم.
- عائشة الدرمكي: سيميائيات النص الشفاهي في عُمان.
- حسين العبري: الثقافة المخاتلة (مقالات).
- إحسان بن صادق اللواتي: في السرد العُماني المعاصر.
- بدرية الوهيبي: سُراة الغابة.. معارج الحطّابين.
- بدر الحمداني: مواء القطة.
- زاهر السالمي: شهيٌ خسارة كل شيء.
- عاصم الشيدي: تكلم لأراك.
- أحمد حسن المعيني: بَرَاهِمَة العالم..ومَنبُوذوه.
- محمود حمد: إنّي أُحبّكِ .. والهَديّةُ دمْعتَان.
- محمود الرحبي: مرعى النجوم.
- خالد البلوشي: التعدّديّة الثقافيّة في عُمان.. مرتكزاتها وإشكالاتها.
- زاهر بن حارث المحروقي: لولا الكتب .. قراءات في كتب مختارة.
- وليد النبهاني: من تاريخ الموسيقى في عُمان.. إشكاليات ونصوص.
- أوراق عمل: ندوة شبكة المصنعة الثقافية.. أمبرتو إيكو.. أنا فيلسوف أكتب الروايات
- عبدالعزيز الفارسي: رجل الشُرفة؛ صياد السُحب..
- عائشَة السّيفِي: لا أُحِبُّ أبِي..
- عبد الرزّاق الربيعي: ليلُ الأرمل.
- زاهر السالمي: القوانين الجوهرية للغباء البشري- كارلو م. سيبولا (ترجمة).
- أحمد م الرحبي: انتقام تشيك الرهيب.. وقصص أخرى من الأدب الروسي المعاصر.
- محسن الكندي: التاريخ العُماني وأحداث المجتمع في مدونات المحرر ناصر المسكري.
- سليمان المعمري: كائنات الرَدَّة.
- محمد السناني: نشيد البراءة وقصائد أخرى.
- زاهر الغافري: في كل أرضٍ بئر تحلم بالحديقة.
- عزيزة الطائي: الذّات في مرآة الكتابة.
- ناصر الكندي: ألف ليلة وليلة.
- أحمد الوهيبي: رداء الديك.
- هلال البادي: هذه ليست كل الحكاية.
- بشاير حبراس: شبابيك زيانة.
- علي الرواحي: تحديات الاقتصاد الأخضر (عُمان نموذجًا).
- خميس قلم: إنّها موجة عالية.
- بدر الشيدي: تمثال الضحك.
- علي جعفر اللواتي: تاريخ المصارف العُمانية (1948 - 2018)
- ناصر السعدي: الاوربيون في مدونات التراث العماني.

كتــاب نزوى

تصميم الغلاف:

الفنانة بدور الريامي

طبع بمطابع وزارة الإعلام

رقم الايداع: 2020 / 3127

التسلسل الدولي: 978-99969-832-9-0